في بيت النبي

صلى الله عليه وسلم

جميع الحقوق محفوظة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

في بيت النبي

صلى الله عليه وسلم

تأليف

محمد متولي الصباغ

مكتبة مدبولي

مقدمة

ان معرفة ما يجب لأهل البيت النبوي من حق وتعظيم وتوقير ومودة وحب واجب على كل مسلم ومسلمة ، لأن الله تبارك وتعالى فضل أهل بيت النبوة الكرام على سائر المخلوقات ورفعهم بفضله وكرمه أعلى الدرجات وأعطاهم سيادة الدنيا والآخرة ووصفهم بالكمالات الظاهرة والباطنة والمحاسن الفاخرة لأنهم نور لكل زمان وأوان فهم المميزون بالفضل عمن سواهم لأنهم معادن العلوم والمعارف وأولو الفصاحة والبلاغة ، وصدق الله العظيم اذ يقول في حقهم من سورة الاحزاب «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» ويقول أيضا في سورة هود «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد» ويقول سبحانه في سورة الشورى «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» فصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد الذي شرفه الله على سائر المخلوقين ورفع ببركته قدر المنتمين إليه ومنحهم من واسع فضله سوابغ الانعام وفرض على أمته مودة أقربائه ومحبة أهل بيته السادة الكرام الأطهار فإني لما رأيت أكثر الناس في حق أهل البيت مقصرين ، وعما لهم من الحق معرضين ، ولمقدارهم مضيعين ، وبمكانتهم من الله تعالى جاهلين ، فبدأت الحديث عن أهل بيت النبوة بنبذه عن اولاد النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب البسيط «قبسٌ من نور أهل بيت الرسول» تدل على عظيم مقدارهم وترشد المتقى لله تعالى على جليل أقدارهم وعلو اخلاقهم والله سبحانة أسأله الهداية وأعوذ به من الضلال والغواية ، إنه قرب مجيب الدعوات وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الكرام الأطهار.

المؤلف

محمد متولي الصباغ

القاسم عليه السلام

أول مولود لرسول الله
صلى الله عليه وسلم

القاسم هو أول اولاده صلى الله عليه وسلم وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم ـ ولد القاسم عليه السلام قبل البعثة سنة ثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم ـ وعاش حتى مشى وبلغ ركوب الدابة ـ وقيل عاش حتى بلغ سن التمييز ومات قبل البعثة وقيل مات في الاسلام فهو اول من مات من اولاد النبي صلى الله عليه وسلم ـ توفي بمكة ودفن بها عليه السلام، كان القاسم كثير الشبه بأبيه صلى الله عليه وسلم. لما ولد القاسم ضمه النبي صلى الله عليه وسلم الى صدره وفرح به فرحاً شديداً وفاضت نفسه بالمسرة ووجد في هذا الطفل أنس قلبه وزينة حياته ـ فكـان كل يوم يمـر يتمتع الرسول صلى الله عليه وسلم بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة ويغذى بضمه الى صدره شعوره الانساني ويترعرع الطفل وينمو ويزداد شبهه بالنبي صلى الله عليه وسلم وضوحاً فيزداد له حباً وبه تعلقاً ويرمق من العطف بما لا عطف بعده، وبعد فترة من الزمن مرض الطفل وسعى النبي صلى الله عليه وسلم وزوجته الحنونة أم المؤمنين السيدة (خديجة) الى سرعة تمريضة ولكن القدر أسرع ويرى النبي صلى الله عليه وسلم الطفل في حجر أمه بنفسه، فيملأ الألم قلبه وتندى بالدمع عينه ويجلس الى جوار السيدة (خديجة) الملهوفة على ابنها وهو أشد ما يكـون وجـلاً وخوفاً وفزعاً، ويأخذ الطفل الى حجره وينظر اليه بعينين ملئتا ألماً والطفل في غيوبة الموت لا يوقظه بكاء أمه ولا بكاء أبيه وتقبض هذه الروح البريئة وينطفىء بموته أمل تفتحت له نفس النبي صلى الله عليه وسلم زمنا فتزداد عيناه بالبكاء، ويأخذ منه الحزن كل مأخذ ولكنه قدر الله فالسلام عليك يا قاسم وطبت حياً وميتاً.

زينب الكبرى

المولد الثاني لرسول الله
(صلى الله عليه وسلم)

ولدت «زينب» رضي الله عنها قبل بعثة والدها صلى الله عليه وسلم بعشر سنين وكانت باكورة زواجه من أم المؤمنين «خديجة بنت خويلد» رضي الله عنها وهي أكثر أخواتها شبهاً بأبيها «عليه الصلاة والسلام».

وهي تنتسب الى أشرف أبوين في الوجود فوالدها هو محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين امام الانبياء وقدوة المرسلين وقائد الغُرّ المحجلين عليه وعلى آله وصحبه الأبرار الطاهرين أزكى الصلاة وأطيب التسليم. وأمها هي سيّدةُ نساء العالمين ذروة قريش نسباً وشرفاً وفضلاً وعلماً زوجةُ أحب خلق الله إلى الله محمد عليه الصلاة والسلام.

نشأتها

خرجت إلى الدنيا في أكرم منبتٍ أنبتتها سُلالَةٌ قرشيّةٌ عريقة أصيلة ما عرف العرب أعَزّ منها ولا أنقى واستقبلها بيت كريم البنيان طاهر الأردان. لأنها كانت ثمرة زواج سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة والاحترام العظيم ولقد رأى فيها الأب الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) صورة لطيفةً من زوجته الحبيبة التي أنسته بحنانها الغامر وحدبها الكبير كل ما عاناه في طفولته من قسوة اليتم.

وكانت الأم العظيمة «خديجة» ترى فيها صورة حيّةً من زوجها الحبيب العزيز الذي بهرها منذ عرفته بجلال طلعته وأسرها بمهابته ونبل شخصيته وفتنها بجميل خصاله فتفتح له قلبها المغلق بسبب زواج سابق غير موفق فأقبلت على الحياة من جديد.

ولقد كانت «زينب» ـ رضي الله عنها ـ بإطلالتها الأولى على بيت النبوّة ريحانةً

تفيض عليه طيباً عابقاً وبهجة غامرة. وعُهد بها على عادة أشراف العرب إلى المرضعات فلما أخذت حظها ونصيبها تلقفها البيت الكريم ثانيةً بشوق بالغ وعطف غامر.

* * *

ولما شبت (رضي الله عنها) بادرت أمها بتدريبها على المشاركة في عبءِ المنزل وأخذتها على التمرين مأخذ الجدّ وحاولت أن تبعدها قدر الامكان عن عبث الطفولة ولهوها فكانت وهي لا تزال فتاة صغيرة ـ لشقيقتها الصغرى «فاطمة» ـ رضي الله عنهما ـ نعم المربية والراعية الصالحة ترعى شؤونها وتلاعبها وتقوم على خدمتها.

وحين اكتملت أنوثتها تقدم لخطبتها ابن خالتها «أبو العاص بن الربيع» الذي كان كثير التعلق بخالته «خديجة» التي كانت تُنزلُه منزل الابن وتغمره بعطفها وحنانها.

وكان «أبوالعاص» يرى «زينب» كلما جاء إلى بيت خالته فيؤخذ بجلال مرآها وعذوبةِ حديثها وذكاء ملامحها ولطف طباعها وتفتح أنوثتها وكانت «زينب» ـ رضي الله عنها ـ ترتاح إلى محضره ويطيبُ لها أن تُصغي إلى أخباره وما فيها من طرائف وغرائب. وهكذا تفتح القلبان وأحسا لمسة الحبّ الرقيقة السّاحرة تُحرك وجدانها وعاطفتها.

* * *

تقدم «أبو العاص» لخطبة «زينب» فأحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاءه وأصغى اليه بكل جوارحه ولكنه استأذنه في سؤال صاحبة الشّأن ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنته قال لها:

ـ بنيتي «زينب» إن ابن خالتك «أبا العاص» ابن الربيع ذكر اسمك فسكت «زينب» حياءَ ولم ترد جواباً لكن خفقات القلب الطاهر وإغضاء النظر حياءً كانا خير جواب.

فعاد (عليه الصلاة والسلام) إلى «أبي العاص» وصافَحَهُ مُهنِّئاً وداعياً مباركاً.

في بيت الزوجية

وفي بيت الزوجية أظلت «زينب» وزوجها «أبا العاص» سعادة غامرةٌ وحبٌ متبادل فنهلا من رحيق الود أصغى شرابٍ وأنقاهُ.

وكـان «أبو العاص» بحكم تجارته ومكانته في قومه كثير السفر يغدو إلى الشام فيغيب أيّاماً وليالي فتعاني «زينب» من ألم الفراق ويعاني هو من ألم البعاد ولقد هاج به الشوق مرةً في إحدى رحلاته فأنسد يقول:

ذكرتُ «زينب» لما وَركتْ إرَما فقُلتُ: سُقْيا لشخْصٍ يَسْكُنُ الحَرما:
بنتُ الأمين جزاها اللهُ صالِحَةً: وكل بَعْلٍ سيثْني بالذي عَلِما.

* * *

وضعت «زينب» لأبي العاص ولدين «عليّاً» و«أُمامة» فاكتملت بهما فرحة البيت وامتلأت جوانبهُ سعادة وهناءة. ولكن...

وفي ذات يومٍ وبينما كان «أبو العاص» في احدى رحلاته حدث الأمر العظيم ونبىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة. وتابعت «زينب» أباها شأن أمها وأخوتها وأهلها ولما عاد الزوج من رحلته حدثته بما حصل أثناء غيابه.

«مفتـرق الطـرق»

وقال «أبو العاص» لزوجته الحبيبه:

ـ والله ما أبوكِ عندي بمتهم وليس أحبُ إلـيَّ من أن أسلك معكِ يا حبيبةِ في شِعْبٍ واحد لكني أكره لكِ أن يقال ان زوجك خذل قومه وكفر بآلهة آبائه إرضاءً لامرأته فهلا قَدَّرت وعذرت!! وهما بعناقٍ.. ثُـمَّ ما لبثا أن تراجعا فجأة وكأنَ حاجزاً قد قام بينهما فحال دون بغيتهما وانكفئا.. ولم يناما ليلتهما ولا الليالي التي بعدها وسادَ جوَّ المنزل قلقٌ وهم وحذر وانقلب النعيم إلى جحيم.

المسؤوليات وأعظمها فكانت صابرة محتسبة تخفف عن الأب الرسول آلامه وأحزانه وتواسي الأم قائلة :

ـ لا بأس عليك يا أماه .

البشـــرى

وحضر (أبو طالب) إلى الشِعْب وبشر ابن أخيه بفك الحصار وتمزق الصحيفة وإجماع (هشام بن عمرو) و(زهير بن أمية) و(المطعم بن عدي) و(زمعة بن الأسود) و(أبي البختري بن هشام) على الوقوف إلى جانب بني هاشم وبني المطلب. فسُر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقل النبأ إلى أهل بيته وإلى المسلمين وعادوا جميعاً إلى مكة وقد زادهم الحصار يقيناً بالله وزادتهم المحنة تقرباً إليه تعالى وصقلتهم التجربة وشدت من إيمانهم وعزمهم .

وفاة خديجة (رضي الله عنها)

لقد أنهك الحصار بدن السيدة المجاهدة فرقدت في فراشها بمكة تتهيأ للقاء الله عز وجل ثم مالبثت روحها أن فاضت إلى بارئها سبحانهُ وتحلق من حولها : زينب وأم كلثوم وفاطمة يتزودن منها قبل الرحيل . وكان ذلك في اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من البعثة ودفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه الشريفتين في حفرتها في الحُجُون وعاد إلى البيت محزوناً فضم إليه «أم كلثوم» و«فاطمة» وواساهما وخفف عنهما ما بهما من ألم المصاب . وكبرت مسؤولية (أم كلثوم) فأضحت المسؤولة الأولى عن البيت النبوي الشريف وكانت نعم ربة البيت المثالية كيف لا !! وهي ابنة سيدة نساء العالمين (خديجة بنت خويلد) .

الهجـــرة

وأصبحت ذات يوم وقد شاع في أحواء مكة خَبَرُ مطاردة قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي خرج من (مكة) إلى (يثرب) مهاجراً فلما علمت بوصوله

سالماً إطمأنت وسعدت . . . وبعد أيامٍ جاءَ من يثرب مُوفَد فصحبَ أُختيها «فاطمة» و«أم كلثوم» وبقيت زينب في (مكة) في منزل زوجها «أبي العاص» تنتظر قضاء الله وأمرهُ .

الأســـير

وخرج «أبو العاص» مع قريش في نفيرها لحماية تجارتها التي تعرضت لتهديد المسلمـين ودارت رحى القتـال وانتصر المسلمـون ووقـع «أبـو العاص أسيراً» ولما استعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسرى نحى «أبا العاص» جانباً وقال لأصحـابه استوصوا بالأسرى خيراً وكانت «زينب» في وضع لا تحسد عليه وحين بدأت عمليّةُ فداء الأسرى كانت رضي الله عنها راغبةً في عودة زوجها إليها مستشيرة هّمة والدها العظيم لذلك فاستخرجَت من صندوق ثيابها وحِليها قلادَة كانت لأمها «خديجة» رضي الله عنها وأهدتها إليها يوم عُرسها . ثم حَمّلتها لشقيق زوجها (عمرو بن الربيع) كي يقدمها فدية عن زوجها .

ولم يكد (عليه الصلاة والسلام) يرى تلك القِلادة حتى رَقَّ لها رِقّةً شديدة وخَفَقَ القلب الكبير للذكرى العظيمة . وأطرَقَ الحاضرون من الصحابة خاشعةً أبصارهم وقد أخذوا بجلالِ الموقف وروعته .

وبعد صمت طويل قال صلى الله عليه وسلم :

ـ إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا ! !

فقالوا جميعاً :

ـ نعم يا رسول الله .

الفـــراق

لكن النبي صلى الله عليـه وسلم أوصى (أبـا العـاص) أن يُرسِلَ (زينب) ويتركها فإن الإسلام قد فرق بينهما .

وعاد (أبو العاص) إلى (مكة) فاستقبلتهُ (زينب) هاشّةً باشةً ، فرِحةً مُرَحّبة وكان

هو بادي الوجوم ظاهر الحزن ثم قال: ـ جئتكِ مُودّعاً يا (زينب) . . . وأخبرها بما وعد أباها منْ ردها إليه.

وعلى مضضٍ خرجت (زينب؛ من (مكة) وودّعت (أبا العاص) وداعاً مؤثراً فقال لها:

ـ مهما يحدث يا (زينب) فسأبقى على حُبّك ما حييتُ وفيًّا وسيبقى طيفك أبداً ملءَ هذه الدار التي شهدت أحلى وأطيب أيام حياتنا. . ومسحت ؟زينب؛ دموعها المترقرِقة. وانصرفت. ولكن قريشاً تصدت لها ومنعتها وأعادتها إلى مكة وروعت (عليها السلام) بما حَدَث لها وكانت حاملاً فنزفت دماً وأجهضت وعندئذ حماها (أبو العاص) عنده حتى استعادت قوتها وعافيتها واغتنم يوماً غفِلَت فيه قريش عنها فأخرجها بصحبةِ أخيهِ (كنانة بن الربيع) حتى أبلغها مأمنها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاد (كنانةُ) يُردِّدُ وينشد:

عجبت لـ(هبّارٍ) وأوباش قومِهِ
يريدون إخفاري ببنت محمد
ولستُ أبالي ما حييتُ عديدَهُم
وما اسْتَجْمَعَت قبضاً يدي بمهندي

في الاسر مرة ثانية

خرج (أبو العاص) إلى الشام في عيرٍ لقريش وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تلك العير قد أقبلت من الشام فأرسل (زيد بن حارثه) ـ رضي الله عنه ـ في مائة وسبعين راكباً فلقوا العير بناحية (العيص) في جمادي الأولى سنة ست من الهجرة فأخذوها وما فيها من الأثقال وأسروا جماعة ممن كانوا في حراسة القافلة منهم (أبو العاص بن الربيع).

ودَخَل (أبو العاص) على (زينب) مستجيراً فأجارتهُ فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر قامت (زينب) على باب أبيها مستشفعةً وقالت:ـ إني قد أجرتُ

(أبـا العـاص بن الـربيع) فخرج (عليه الصلاة والسلام) وقال: ـ أيها الناس هل سمعتم كما سمعت؟

قالوا: نعم.

قال: ـ فوا الذي نفسي بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت الذي سمعتم: (المؤمنـون يد على من سواهم يُجيرُ عليهم أدنـاهم) وقد أجرنا من أجارت. فلما انصرف (عليه الصلاة والسلام) إلى منزله دخلت عليه (زينب) فسألته أن يرد على (أبي العاص) ما أخذ منه ففعل وأمرها أن لا يقربها فإنها لا تحل له ما دام مشركاً ورجع (أبو العاص) إلى مكة فأدى إلى كُلّ ذي حقٍّ حَقّه ثُمّ أعلن إسلامَهُ في نادي قريشٍ وعلى رؤوس النّاس وانصرف إلى المدينة مسلماً مهاجراً وردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (زينب) فاجتمع الشّمل واكتمل العقد وخّيم على الدار ما كان من قبل من حُبورٍ وسرورٍ وسعادة.

الفـراق الابدي

مضى على الزوجين عام واحد في المدينة يعّبان من السعادة والفرحة ثم كان الفراق الذي لا لقاء بعده إذ ماتت (زينب) رضي الله عنها ـ في مستهل السنة الثامنة للهجرة متأثرة بمرض النزف الذي لازمها منذ هجرتها.

وبكاها (أبو العاص) بكاء حاراً وتشبث بها حتى أبكى من حوله وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم دامع العين محزون الفؤاد ثم قال: إغْسِلْنها ثلاثاً... واجعلن في الآخرة كافوراً ثم صلى عليها وشيعها إلى المقر الأخير.

* * *

وعاد (أبو العاص) إلى ولديه: (علي) و(أُمامة) يقبلهما ويبللهما بدموعه مستذكراً وجه الحبيبة الغائبة. رضي الله عن (زينب) بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجزاها بما صبرت وكافحت وجاهدت جنّة وحريرا.

رقيـــــة
المولود الثالث لرسول الله
(صلى الله عليه وسلم)

وُلدت «رقية» ـ رضي الله عنها بعد أختها «زينب» فكانت قُرّةَ عينٍ لوالديها الكـريمـين ومـا لبثت أن جاءت بعـدهـا «أم كلثـوم» فنشـأتـا سويا، متلاصقتين متعـاطفتين، ولقـد اشتـد تقاربهما وانسجامهما خصوصاً بعد أن فارقتهما «زينب» كبُراهُن إلى منزل الزوجية فكانتا أشد وثوقا وخلوصا إلى بعضهما وكأن القدر كان يرسم لهما في مستقبل الأيام مصيراً واحداً بداية ونهاية وفي كتب السيرة ما يشهد على هذا التلازم الغريب العجيب إذا أجمعت كل الروايات التاريخية على وحدة الحال التي كانت قائمة بين الأختين «رقية» و«أم كلثوم».

الخـــطبة

بعد أن زُوجت «زينب» إلى «أبي العاص» ابن الربيع وقد قاربت سن «رقية» و«أم كلثوم من الزواج» جاءَ «أبو طالب» عم النبي صلى الله عليه وسلم خاطباً لهما إلى ابني أخيه «عبدالعُزي بن عبد المطلب أبي لهب فقال أبو طالب:

ـ جئناك نخطبُ ابنتينا «رقية» و«أم كلثوم» وما أراك تضِنّ بهما على ابني عمك...

«عتبة» و«عتيب» إبنا العم (عبد العُزي). فأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: معاذ القرابة والرّحم ولكن هلا أسهلتني يا عمّ حتى أتحدث في هذا إلى ابنتي....

* * *

وعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر على أهل بيته زوجته «خديجة» وابنته صاحبة الشأن. سكتت «خديجة» رضي الله عنها قليلاً في فترة تأمل فهي تعرف حق المعرفة (أم جميل) زوجة (أبي لهب) وتعرف قسوة قلبها وشراسة طبعها وحدة لسانها وطيشها الأهوج فأشفقت على ابنتيها أن تسلمهما إلى هذا الجو المشحون بالحقد

والكراهية والخلق السيء: ولكنها خافت إن هي نطقت برأيها أن تغضب زوجها فيظن أنها تريد أن تمزق أواصر القُربى بينهُ وبين أهله فسكتت كما سكتت الفتاتان حياء وأغضتا عن الجواب رقّةً وخجلاً. وتمّ الأمر وعقدت الخطبة في جو مشوبٍ بالقلق وبارك الأب الحنون ابنتيه وترك أمر رعايتهما لله عز وجلّ.

النبــوّة

ولاحَ في سماء مكة **قبس من نورٍ** أضاءَها وبدد ظلمتها إذ أظلتها بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم هدايةً ونوراً وتردد في أسماعِ (خديجة) ما كان يقوله ابن عمها ورقة بن نوفل:

لَجَجْتُ وكنت في الذكرى لجوجاً.
لِهمَّ طالما بَعَثَ النشيحا
ووصْفُ من (خديجة) بعد وصف
فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكّتيْن على رجائي
حديثك أن أرى منه خروجا
ويظهرُ في البلاد ضياءُ نورٍ
يُقيم به البريّة أن تموجا
فيا لَيْتني إذا ما كان ذاكُمْ
شهِدتُ فكُنْت أوَّلهم وُلُوجا

* * *

وتـذكرت «خديجة» رضي الله عنها ابنتيها «رقية» و«أم كلثوم» وما سيؤُول إليه أمرهما بين يدي «أم جميل» الظالمة وزوجها المطواع لها.

* * *

واجتمعت قريش وائتمرت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قائلها:

ـ انكم قد فرغتم محمداً من همه فردوا عليه بناته فأشغلوه بهن... ورد «أبو لهب»

زواج ابنيه من بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً لولديه : ـ رأسي ـ من رأسيكما حرامٌ إن لم تطلقان ابنتي محمد . . . ولم يكن الدخول قد تم .

وعادت الفتاتان إلى زوجيهما . . . ولم تكتف «أم جميل» و«أبو لهب» بما أقدما عليه بل بالغا في إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم فكان «أب لهب» يتعرض له في كل مجلسٍ وطريق مهاجماً ومقارعاً وساباً شاتماً كما أن زوجته حمالة الحطب كانت تجمع الأشواك المؤذية فترميها في طريقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فتؤذيه . فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله : «تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهبٍ وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبلٌ من مسدٍ» مما زاد شعورهما بالكراهية والنفور وإمعاناً في الشدةِ والايذاء .

البيت المثالي المجاهد

وقال «محمد صلى الله عليه وسلم لزوجته الوفية المخلصة : لقد مضى عهد النّوم يا خديجة . . . وأحسّت «رقية» و«أم كلثوم» ـ رضي الله عنهما ـ بتبدل أساسي في جو البيت فقد أصبح بيتاً يلُفهُ الجد ، وتأخذه القسوة من كل جانبٍ فهو هدف رئيسي للاضطهاد والعذاب والسخرية وانزاحت عن أرجائه بسمةُ السعادة فتحملتا صابرتين مع الأبوين كل ذلك تقرباً إلى الله تعالى واستعذبتا الألم والشقاء والتضحية في المعركة المقدسة .

التعويض الكريم

وخاب فأل قريش وظنها فلم يعنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من جراء رد ابنتيه إليه ، إذ عوضهُ الله تعالى خيراً من الزوجين الأولين وعوضه زوجاً صالحاً كريماً عزيزاً عريق النسّبِ واسع الثروةِ لطيف الخلق حَسَنَ الطباع ذلكم هو «عثمان بن غفان بن أبى العاص بن عبد شمسة وكان ـ رضي الله عنه ـ من أعزّ فتيان قريش حسباً وجاهاً وغنى . وزوجهُ (عليه الصلاة والسلام) من «رقية» وبارك لهما وفيهما وعليهما .

المحنــة

واشتد أذى قريش بالمسلمين ونالو منهم نيلاً فاحشاً فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ولإخوانِهِ في الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم حتى لا يفتنوا قائلاً لهم:

ـ لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه. فخرج «عثمان بن عفان» ـ رضي الله عنه ـ مع زوجته «رقية» التي كانت دامعة العين والهة القلب معذبة النفس وعانقت أباها وأمها وأخواتها وكأن لسان حالها يردد:

الأهل والأوطان فراقهم صعبُ
والروح والأبدان فليقبل الرب
لكنـه الايمان فداؤه القلبُ
فليقبل الربُّ

وكـان «عثمان» رضي الله عنه ساهماً حزيناً فنظرت إليه «رقية» المؤمنة الصابرة وقالت مخففةً عنه:

ـ إن الله معنا ومع الذين تركناهم برغمنا في جوار البيت العتيق فذهب عنه ما ألم به ومضت القافلة...

فـي حمـى (النجاشي)

وأقام المهاجرون في حمى النجاشي موفوري الكرامة يتمتعون بحريّةِ العمل والعبادة ولم يكن لينغص عليهم مقامهم سوى أمرين اثنين: دسيسةُ قريش عليهم عند النجاشي وأخبار أهليهم في مكة بما يلاقونهُ من اضطهادٍ وعذاب ونصب.

العــودة

ومضت بهم الحيــاة. . . حتى سمعــوا بإســلام «حمـزة بن عبـد المـطلب و«عمـر بن الخطاب» رضي الله عنهما فأثر بعضهم العودة رغبة بالمشاركة في صنع المستقبل ورؤية الأهل الذين طال بعدهم واشتد شوقهم إليهم. أما الآخرون فأرادوا أن يستمروا في مقامهم حتى يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعودة وكان «عثمان بن عفان» و«رقية» من الذين عزموا على العودة وما إن وطئت أقدامهم أرض الوطن وتكحلت عُيُونُهم برؤيةَ مغاني الصِّبا ومراتع الشباب حتى فاضت بالدّمع. ولكنهم فوجئوا بازدياد طغيان قريش وعنتها فطووا قلوبهم وأفئدتهم على خيبة الأمل. وكانت «رقية» أكثر العائدين حزناً لأنها دخلت دار أبيها مسلمةً مشاقة فقبلت أخواتها وبلهفةٍ سألت عن الأم العظيمة فسكتن ولم يجبن وكانت دموعهن أبلغ جواب لقد لحقت بالرفيق الأعلى فبكت (رقية) ونشجت ثم صبرت على قضاء الله وقدره.

الهجــرة إلى يثـرب

ولم يطل مقامها بمكة فقد هاجر المسلمون إلى يثرب وهاجر معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي المدينة وضعت «رقية» طفلها (عبدالله) يملأ عليها دنياها الجديد أُنساً وبهجةً وعوضها عمّا لقيت في ماضي الإيام من لوعةٍ وعذابٍ ومُصاب. . . ولكن المؤمن ممتحنٌ مبتلى. . . (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) فبينـما كان الوليد الصغير نائماً في مهده نفرهُ ديك في وجه فتسمم ومات بعد أيام فترنحت (رقية) تحت وطأةِ المصاب ووقعت فريسة الحمّى فلازمها الزوج الحنون الرفيق (عثمان ؛ ـ رضي الله عنه يمرضها ويرعاها ويقوم على شؤونها ويدعو الله تعالى أن يخفف عنها ما بها ويذهب عنها البأس.

الوفــاة

وتناهى إلى سمع ؟عثمان) ـ رضي الله عنه صوت الدّاعي إلى الجهاد يستنفر